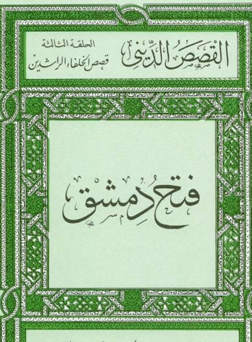


القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

فتح دمشق

٦

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

(قرآن كريم)

عزم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ علـى فتْح الشّام ، فأرسلَ
أربعة جيوشٍ إليها ، وسارتْ هـذه الجيـوشُ وقاتلت
الرّوم ، فلقيتْ منهم مقاومةً شديدة ، فرأى أبو بكرٍ
أن يُعزِّزَ هذه الجيوشَ ببعضِ أبطالِ المسلمين ، الّذين
يُحاربونَ الفُرسَ فـى العِراق ، فكَتبَ إلى خـالدِ بـنِ
الوليد ، سيفِ اللّه المسلول ، أن يسيرَ من العراق
إلى الشّام . واجتمعتْ جيوشُ المسلمين تحتَ إمرةِ
خالد ، واجتمعتْ جيوشُ الرُّوم تحت إمرةِ ملكِهم
هِرَقْل . وجاءتِ الأنباءُ بموتِ أبى بكرٍ وتوليةِ عمرَ
الخلافة ، وقد التقى الجيشان عند نهر اليَرْموك ، وقد
دارتْ رحَى معرَكةٍ فاصلة ، بين الـرُّوم والمسلمين .
وجاءتِ الأنبـاءُ بعزلِ خـالدٍ وتوليةِ أبـى عُبيـدَة بـنِ
الجرّاح ، قائدًا عامًّـا علـى جميعِ جيوشِ المسلمينَ ،
فكتمَ خالدٌ هذا النّبأ ، حتى تمتْ له هزيمةُ الرُّوم ، ثم
أعلنَ النبأ ، وأعلن قبولَه أن يعملَ كـأحَدِ الجُندِ فـى

جيشِ أبي عبيدة ، فقد كان خالدٌ يحاربُ في سبيلِ اللّه ، سواءً عندَه أكانَ قائدا أم جنديّا .

وسار أبو عبيدةَ بالجيوش ، وقد جعل وجهتَه دِمَشق ، عاصمةَ الشّام ، فجاءتهُ الأخبارُ بأنَّ المَددَ قد أتَى أهلَ دِمَشْقَ من حِمْص ، فأصبحَ لا يَدْرى أيبدأُ بغزوِ دِمَشْقَ أم بمدينةِ فَحْلٍ من بلادِ الأرْدُنّ ، فكتب في ذلك إلى عمرَ بن الخطاب ، فلما جاء عمرَ الكتاب ، كتب إلى أبى عبيدة : « أمَّا بعد ، فابدءوا بدِمَشْق ، فإنّها حِصْنُ الشّام ، وبيتُ مملكتهم ، واشغَلوا عنكم أهلَ فحل بخيلٍ تكون بإزائهم في نحورهم » .

فسرَّح أبو عبيدةَ إلى فحل عشرةَ قوّاد ، فلما رأتِ الرّومُ أنَّ الجنودَ تُريدُهم ، بَثَقوا المياهَ حول فحل : أطلقوا ماءَ بُحيرةِ طَبَريَّة ونهرِ الأردنِّ في الأرضِ حولَهم ، فأرْدَغَتِ الأرض ، ثم تَوَحَّلَت ،

وتعذَّر السَّيرُ فيها ، فوقفوا بإزاءِ الرُّومِ وحاصروهم .

وأرسل أبو عبيدةَ جيشًا آخر ، ليقفَ بين دِمَشْقَ وحِمص ، حتى يتعذَّر على هِرقلَ ملكِ الرُّوم ، الَّذى كان فى حِمْص ، أن يُرسلَ المددَ إلى دِمَشْق ، إذا ما هاجَمها أبو عبيدةَ بجيشِه .

وسار أبو عبيدة إلى دِمَشْق ، وقد جعل على مقدّمتِه خالدَ بن الوليد ، وعلى مُجنِّبتيه عمرَو بنَ العاص وأبا عبيدة ، وانطلقوا قاصِدين دِمَشْق .

سار خالدٌ حتى أشرف على موضعٍ يقال له الثَّنِيَّة ، فوقف هناك ، وركَّزَ رايةَ العُقاب ، فسميت : « ثنيَّة العُقاب » ، ثم ارتحلَ منها إلى دَيْر ، وأقام على الدَّير ينتظرُ قدومَ أبى عبيدة ، فسُمِّيَ ذلك الديرُ فيما بعدُ « دَيْرَ خالد » .

وبلغ هِرقلَ قدومُ خالدٍ على دِمَشْق ، فغضِب ، وجمع رجالَه ، وقال :

هؤلاءَ العَرَبُ قد توجَّهوا إلى الرَّبوة ففتحوها ، فواكَرْباه ! لأنَّ دمشقَ جنَّةُ الشَّام ، وقد سارتْ إليها الجيوش : أَيُّكم يتوجَّه إلى قتال العرب ، ويكفيني أمرَهم ، أعطيته ما فتحوه مِلْكا ؟

فقال أحدُ فرسانهم الشجعان .

ـ أنا أكفيك ، وأردُّهم على أعقابهم مُنهزمين .

وجهَّزه الملك ، وخرج على رأسِ خمسةِ آلاف فارس ليرُدَّ العربَ عن دِمَشْقَ جنَّةِ الشَّام . وزحف جيشُ الرُّوم على جيش خالدٍ كالجرادِ المُنْتشِر . فلمَّا نظر خالدٌ ذلك ، تدرَّعَ بدرعِه ، ثم صرخ في وجهِ المسلمين ، وقال :

ـ هذا يومٌ ما بعدَه يوم ، وهذا العدوُّ قد زحف بخيلِهِ ، فدونَكم والجهاد ، فانصُروا اللّهَ ينصرْكم ، وكونوا ممَّن باعَ نفسَه للّهِ عزَّ وجلّ .

هجم المسلمونَ على الرّوم ، ودار القِتال ، وتطايرتِ السِّهام ، ورأى الرُّومُ من العرب شجاعةً

أَفْزَعَتْهم ، فانسحبوا إلى دِمَشْق ، وأغلقـوا أبوابها ، وراحوا يجمعونَ جموعَهم ، ليستأنِفوا القتالَ بعد أن يُضمِّدوا جروحَهم ، ويُسوُّوا صفُوفَهم .

وأقبلَ أبو عبيدةَ في جيشِه ، فأسرعَ خالدٌ إليه يخبره بما كانَ بينَه وبينَ الرُّوم ، وأَقبلَ المسلمون يُسلِّم بعضُهم على بعض ، فلمّا كان الغد ، ركِب النّاسُ خيولَهم وتَزَيّنتِ المواكب ، وزحف أهلُ دِمَشْقَ للقتال ، فقال خالدٌ لأبي عبيدة :

ــ إنّ الرُّومَ قد انخذلوا ، ووقع الرُّعبُ في قلوبهم ، فاحمِل بنا على القوم .

فقال أبو عبيدة :

ــ هذا هو الرأي السَّديد .

ونزل خالدُ بنُ الوليدِ عَلَى البابِ الشّرقيّ ، ونزل أبو عبيدةَ على باب الجابيةِ الكبير ، ونزل عمرُو بنُ العاصِ والقوّادُ الآخرونَ على بقيّةِ أبوابِ البلد ، ونصبوا المجانيقَ والدّبّابات . واستمرَّ الحِصار ،

وراحت الشُّهور تمرّ والرُّومُ فى حصون المدينةِ يقاومون ، ويُرسلونَ إلى ملكهم هرقل ، الذى كان بحمص ، يطلبونَ المَدَد ، فأرسلَ إليهم خيولا لتُغيثَهم ، ولكنَّ جيشَ المسلمينَ ، الذى وقف بين حمصَ ودِمَشْقَ ، هزم المدد ، فوقع أهلُ دِمشقَ فى حَيْرَةٍ شديدة .

٢

اشتدَّ الحِصار ، ولكنْ لم يدبَّ الضعفُ فى الرُّوم المتحصنينَ فى الحصون ، كانوا ينتظرونَ الشِّتاء ، وكانوا يأمُلونَ أن ينفضَّ العرب أبناءُ الصَّحْراء عن حصارهم إذا اشتدَّ البرد ، فقد كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعونَ احتماله . وجاء الشِّتاءُ ببرده الشديد ، وظلَّ المسلمون على حصارِ دِمَشْق . وانقضى

الشِّتاء ، وأَقبل الرَّبيع ، فضعُف الرُّوم ، وتيقَّنوا أَنَّ المسلمينَ لن يرجعوا عن دِمَشْقَ حتى يفتحوها ، ويستولُوا عليها . وأراد قائدُهم أن ينفُخَ فيهم الحماسة ، فوقف بينهم وقال لهم :

ـ إنه قد طاف عليكم قومٌ لا أَمانَ لهم ، وقد أَتَوْا يسكنونَ بلادكم ، فكيف صَبَرْتُم على ذلك ، وعلى هتكِ الحريم ، وسبيِ الأولاد ، وتكونَ نساؤكم جوارِيَ لهم ، وأولادُكم عبيدًا لهم ؟

فقالوا له :

ـ ها نحن بين يَدَيْك ، وقد رضينا بما رضيتَ لنفسِك ، فإن أمرتنا بالخروجِ خرجنا معك ، وإن أمرتنا بالقِتال قاتلنا .

ـ إني قد عزمتُ على أن أهجُم عليهم الليلة ، فإن اللَّيل مَهيب ، وأنتم أخبرُ بالبلدِ من غيرِكم .

ـ حُبًّا وكرامة .

وراح القائدُ يفرِّق جنودَه ، ففرَّق القوم على الباب الشرقيِّ فرقَة ، وعلى باب الجابيةِ فرقة ، وعلى كل بابٍ جماعةٍ .

وفى سكون الليل فُتحتِ الأبواب ، وتسلَّل الرُّوم ليقتلوا العربَ وهم نائمون ، ولكنَّ المسلمينَ كانوا فى يَقَظَة ، فلما رَأَوْا قدومَ الرُّوم ، أيقظَ بعضهُم بعضا ، وتواثب الرِّجال من أماكِنهم كالأسود ، فتقاتل القومُ فى جُنح الظَّلام ، وأسرع خالدٌ إلى جنوده وهو يصيح :

ـ أبشروا يا معاشرَ المسلمين ، أتاكم الغوثُ من ربِّ العالمين ، أنا الفارسُ الصِّنديد ، أنا خالدُ بنُ الوليد .

وعلا الرومُ الأسوار ، وراحوا يَرْمونَ المسلمينَ بالنِّبال ، واستمرَّ القتالُ فى الليل ، وكانت ليلةً مقمرة ، فقُتل من الرُّومِ خلقٌ كثير ، ولم يستطيعوا

صبرا ، فانسحبوا إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابَها خلفهم .

واجتمع كبارُ أهلِ دِمَشقَ إلى قائدِهم ، وقالوا له :
ـ أيها السيِّد ، إنا قد نصحناك ، فلم تسمعْ لقولنا ، وقد قُتِلَ منا أكثر النّاس ، فصالحْ ، أصلحْ لك ولنا ، وإن لم تصالحْ صالَحْنا ، وأنتَ وشأنَك .
فقال لهم :
ـ يا قومُ أمهلوني حتى أكتبَ إلى الملك .

٣

اشتدَّ الأمرُ على أهلِ دِمشْق ، فأرسلوا إلى خالدٍ أن أمهِلْنا ، فأبى خالدٌ إلاّ القِتال ، وتحدَّثَ أهلُ دِمَشْقَ فى أمرِ الصُّلحِ فقالوا لرجلٍ من حكمائهم :

ـ كيف الرَّأْىُ عندَك ، فنحنُ نعلُم أَنَّ هـذا الأميرَ الذى على البابِ الشَّرْقىِّ (خالد بن الوليـد) رجـلٌ سفَّاكٌ للدِّماء ؟

فقال الرجل :

ـ إذا أردتُم تقـارُبَ الأمر ، فـامْضُوا إلى الـذى على بـابِ الجابيـةِ (أَبى عبيـدة) ، وليتكلمْ رجـلٌ يعرف العربيةَ ويقول :

« يا معشرَ العـرب ، الأمـانَ حتـى نـنزلَ إليكـم ، ونتكلَّمَ مع صاحِبكم » .

وصعد رجلٌ من الرُّومِ يَعْرِف العربيَّة ، على سـورِ المدينة ، وصاح يطلبُ الأمان ، فأرسل إليه أبو عبيدةَ أبا هريرةَ صاحبَ رسولِ اللّه ، فقال :

ـ لكم الأمان .

ـ أنا أبو هُرَيْرَة ، صاحبُ رسول اللّـه ﷺ ، ولـو أنَّ عَبيدًا لنـا أَعطَوْكُـمُ الأمـانَ والذِّمام ، ونحن فى

الجاهليةِ لِما غَدَرْنا ، فكيفَ وقد هدانا اللّه إلى دينِ الإسلام !

وذهب وفدٌ من الروم إلى أبى عبيدة ، ليتكلّموا فى أمرِ الصلح .

٤

ووُلد لبطريق دمَشْقَ مولودٌ فى هذه الليلة ، فأعدَّ وليمةً فاخرة ، دعا إليها الجنود ، فأكلوا وشربوا وتعبوا ، فناموا عن مواقعِهم ، وكان خالدُ بنُ الوليدِ يرقُبُ حركاتِهم ، ينتظرُ فرصةً يَغفُلونَ فيها ، ليهجُمَ عليهم ، ويفتحَ مدينتَهم ، التى دام حصارُها أربعةَ أشهر ، فلما لم يجدْ جنودَ الرُّومِ على أسوارِ المدينة ، أرسَلَ بعضَ عيونِه ، ليرَوْا ما الخبر ؟ فعادوا إليه ، وأخبروه أنَّ الجنودَ مشغولون بوليمة البِطريق .

وأعدَّ خالدٌ سلاليمَ من حبال ، ودعا بعض أبطالِ المسلمين ، وقال لهم :

ـ اتبعونى .

وقال لجيشه .

ـ إذا سمِعتم تكبيرَنا فوق السُّور ، فارقَوْا (فاصعدوا) إلينا .

وكان حولَ الحصنِ خندقٌ به ماء ، فقطع خالدٌ وأبطالُ المسلمينَ الخندقَ سباحة ، حتّى إذا بلغوا الحصنَ نصبوا السلالم ، وقد أثبتوا أعاليها بالشُّرُفات ، وصعدوا فيها ، حتى إذا استَوَوْا على السُّور ، رفعوا أصواتَهم :

ـ اللّه أكبَر .... اللّه أكبَر .

وسمِع جيشُ خالدٍ التكبير ، فأسرعَ المسلمون إلى الحِصن ، وصَعِدوا فى تلك السَّلالم ، وهبط خالدٌ

وأَصحابُه من السُّور إلى البوابين فقتلوهم ، وقطع خالدٌ وأَصحابُه أغاليقَ البابِ بالسُّيوف ، وفتحوا الباب عَنْوَة ، فدخل المسلمونَ من البابِ الشرقيِّ كالموج ، وراحوا يقتلون من وجدوه ، فإذا بالمسلمينَ الذين دخلوا من الأبوابِ الأخرى يقولونَ لهم :

- إنّا قد أمّنّاهم .

فقال خالد :

- إنّي فتحتُها عَنوَة .

فأرسل إليه أبو عبيدةَ أن يكُفَّ عن القتال ، فقد صالح الناسَ وأَمَّنهم ، ولما كان أبو عبيدةَ هو الأمير ، فقد سمِع خالدٌ لأمرِه ، وأجرى الصُّلحَ على الجانبِ الذى فتحه .

وفُرِضَت الجزيةُ على أهلِ دِمشْقَ يدفعونَها للمُسلمين ، على أنْ تُتْرَكَ لهم حُرِّيَّةُ العِبادة ، وعلى

أن يتولّى المسلمونَ حمايةَ مدينتهم وأموالِهم . واستقرَّ المسلمونَ بعاصمةِ الشام ، وجلت عنها حاميةُ هِرقْل ، وراح المسلمونَ يتبعونَ الرُّوم ، فلم يجد هِرَقلُ بدًّا من أن يفرَّ إلى القُسْطنطينيَّة ، وأن يتركَ الشَّام للعرب .